وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

MINISTÈRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

ⵓⵖⵏⵉⵣⵔ ⵏ ⵜⵓⵙⵏⵎⵓⵔⵜ ⵜⵏⵉⵣⵔ ⴰ ⵜⵏⵓⵉⵜ ⵜⵓⵏⵓ

ⵅⵓⵓⵎⵓⵍⵉⵅ ⵏ ⵍⵎⵓⵏⵓⵎ ⵓⵅ ⵛⵃⵜⵛⵛⵜⵕ ⵏ ⵅⵉⵅⵉ ⵜⵅⵅⵜ

جامعة مولود معمري - تيزي- وزو

كلية الآداب واللّغات

قسم اللّغة العربيّة وآدابها

رقم التّرتيب.....

الرّقم التّسلسليّ.....

UNIVERSITÉ MOULOUD MAMMERI –DE TIZI-OUZOU

FACULTÉ DES LETTRES ET DES LANGUES

Département de Langue et littérature Arabes

مذكرة تخرّج لنيل شهادة الماستر

الميدان: اللّغة والأدب العربي
الفرع: لغة وأدب عربي
التخصّص: دراسات بلاغية

مسألة الإعجاز البلاغي في القرآن
كتاب إعجاز القرآن
للباقلاني أنموذجا -

لجنة المناقشة:

الرئيس: د . سعيد حاوزة	أستاذ محاضر صنف(أ)	جامعة مولود معمري تيزي-وزو.
المشرف: د. العباس عبدوش	أستاذ محاضر صنف(ب)	جامعة مولود معمري تيزي-وزو.
العضو: د مصطفى بلقاسمي	أستاذ مساعد صنف(أ)	جامعة مولود معمري تيزي-وزو.

دفعة جوان 2016

إهـــــــــــــــداء

(**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) (هود، آية 88)

اللهمّ أرزقني حبك، و أوزعني أن اشكر نعمتك عليّ و على والديّ، و أن أعمل صالحا ترضاه و اجعلني اللهم خيرا مما يضنون.

الحمد و الشكر لله أن وفقني، و منحني القوّة و الشجاعة و الصبر على تحمل أعباء هذا البحث و أعانني على التوفيق بين دراستي و مسؤولياتي (زوجة و أم).

إلى من بلّغ الرسالة و أدّى الأمانة، و نصح الأمة إلى نبي الرحمة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم.

إلى ينبوعى الحب و الحنان، في حضنهما تتبدد الآلام و الأحزان (أبي و أمي) أطال الله في عمرهما.

أهدي عملي الأكاديمي هذا إلى الوطن الدافئ و العطف اللاّ محدود، رفيق دربي و شريك حياتي زوجتي الغالي (حميد).

و إلى زينة الحياة و بهجتها أبنائي أمين و أليسيا.

و الى القلوب الدافئة المعطاة التي شاركتني حلو

الشكـــــــــــر و التقديـــــــــــر

و أتقدم بالشكر و الإحترام و الإمتنان و التقدير إلى كل الأساتذة الأفاضل، أساتذة قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة مولود معمري.

أشكر الأستاذ المشرف د/العباس عبدوش الذي لم يبخل علي بعلمه، و أخصّ بالشكر كذلك الأستاذ حاوزة المتفاهم و المتواضع و نعم المرشد.

أشكر كلّ من أمسك بيدي و ساعدني من قريب و من بعيد لتحقيق هذا العمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـــــــرس

إهداء

كلمة شكر

فهرس

مقدمة 7

الفصل الأول: قراءة في مظاهر الإعجاز البلاغي عند الباقلاني

1- المبحث الأول:التعريف بالباقلاني 10

2- المبحث الثاني: الوجوه الثلاثة لإعجاز القرآن 14

2-1- الإعجاز الغيبي 15

2-2- أمية النبي صلى الله عليه و سلم 15

2-3- الإعجاز البلاغي 16

3- المبحث الثالث: الوجوه العشرة للإعجاز بالنظم 17

3-1- الوجه الأول 17

3-2- الوجه الثاني 17

3-3- الوجه الثالث 17

3-4- الوجه الرابع 18

3-5- الوجه الخامس 18

3-6- الوجه السادس 18

3-7- الوجه السابع 18

3-8- الوجه الثامن 18

3-9- الوجه التاسع 19

3-10- الوجه العاشر 19

4- المبحث الرابع: موقف الباقلاني من وصف وجوه البلاغة 21

4-1- الإيجاز 21

4-2- التشبيه 22

4-3- الإستعارة 22

4-4- التلاؤم 23

4-5- الفواصل 23

4-6- التجانس 23

4-7- التصريف 24

4-8- التضمين 24

4-9- المبالغة 24

4-10- حسن البيان 25

الفصل الثاني: وجوه الإعجاز المرفوضة لدى الباقلاني

1- المبحث الأول:حكمه من الصرفة القائلة عند المعتزلة 28

2- المبحث الثاني: نفي السجع من إعجاز القرآن 30

3- المبحث الثالث: رفض إثبات الإعجاز بالبديع 32

الفصل الثالث: إستواء البيان القرآني و تفاوت البيان البشري

1- المبحث الأول: التحدي و المعارضة 36

2- المبحث الثاني: الفرق بين القرآن و الشعر 39

3- المبحث الثالث: الفرق بين بلاغة القرآن و بلاغة بني البشر 43

خاتمة 49

قائمة المراجع.

ارتقت اللغة العربية، و علا شأنها لكونها لغة القرآن و مادّته، إذ لا يمكن أن يوصل إلى أحكام القرآن، و فهم معاينة، و معرفة مفاتيح التنزيل، إلاّ باللغة العربية و هي إحدى اللّغات العريقة، و سموّها راجع إلى كونها لغة الدين يقول الله تعالى: (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) يوسف، أية 02.

إلاّ إنّه لا سبيل إلى معرفة كلّ من اللغة و القرآن خارجا عن علم البلاغة، فهي فرع من علوم اللّغة العربية حضيت بعناية فائقة من السلف ما جعلها علما قائما بذاته، ليخدم بيان الوحي المعجز، و تفوقه على الأساليب البيانية الأخرى، فهي لبّ اللّغة العربية، و جوهرها، بحيث عدّها علماء المسلمين علما قرآنيا لأنّ نشأتها أساسا كانت في أحضان فهم التنزيل، و إدراك اسباب الإعجاز، و معرفة طرائقه و مسالكه، إذ أنّهم اعتنو بها خدمة للقرآن الكريم و هو ما جعله العامل الرئيسي الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية، بمختلف إتجاهاتها، رغم أنها قطعت رحلة طويلة في جزيرة العرب الذين كانوا فصحاء، يتفننون في الكلام نظما و نثرا، إلاّ أنّه لم تكن للبلاغة ملامح محددة، و مستقلة و إنّما كانت مجرد ملاحظات متناثرة على هامش العلوم حتى جاء القرآن، و إتخذت تلك الملاحظات الهامشية تنمو، و تنضج و تكبر لتصبح مباحث و فصولا، و بدأت تظهر مؤلفات، و كتب تدرس القرآن و البلاغة معا، لتبين حقيقة الإعجاز فيه.

فقضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، قد استحوذت منذ وقت مبكر على قدر كبير من اهتمام العلماء و عنايتهم و كانت الدافع القوي وراء ما بذلوا من جهود مباركة، يرمون من ورائها إلى تحقيق دافع ديني أصيل جدير بأن يبذل في سبيله كل جهد، و تستنفذ فيه كلّ الطاقات.

و لعلّ من بين ما أنجز في الدراسات البيانية لأسلوب القرآن و ابرز من بحث، و درس الإعجاز القرآني، مع السعي إلى الكشف عن خصائصه اللّغوية هو " القاضي أبو بكر الطيب الباقلاني" في كتابه إعجاز القرآن الذي يعد من دعائم علم البلاغة، بحيث هو أهم المصادر البلاغية الأساسية التي ساهمت في تحديد مسار البلاغة، بل مسار الإعجاز البلاغي في القرآن لفهمه و التفقه فيه.

فمن بحثنا هذا سنحاول أن نركز جهودنا على هذا الكتاب، و نبرز ما أثمرت به دراسته البلاغية، لإشباع مسألة الإعجاز البلاغي في القرآن، و ما أثر إعجاز القرآن على علم البلاغة؟

للردّ على هذه الأسئلة فصلنا عملنا هذا إلى ثلاثة فصول

الفصل الأول: خصصناه بقراءة مظاهر الإعجاز البلاغية و غير البلاغية عند الباقلاني، فنبين الوجوه الثلاثة للإعجاز، و كذلك الوجوه العشرة للإعجاز لكن بالنظم، و نحاول أن نختصر وجوه البلاغة التي لخصها من آراء الرّمّاني، لكن قبل كل هذا سنتعرف على من هو الباقلاني، حياته، جهوده.

الفصل الثاني: ذكرنا فيه وجوه الإعجاز التي يرفضها الباقلاني من الصرفة، و نفي السجع و البديع من إعجاز القرآن.

الفصل الثالث و الأخير: خصّصناه لإظهار إستواء البيان القرآني، و تفاوت البيان البشري، مع بيان التحدي و الفرق بين كلام الله، و كلام البشر، و الوقوف على الفرق بين كلام اللهـ و كلام الرسول (عليه الصلاة و السلام).

1- المبحث الأوّل: التعريف بالباقلاني

من هو الباقلاني؟

هو محمد بن الطيب، بن محمد بن جعفر، بن القاسم القاضي ابو بكر الطيب الباقلاني البصري ثم البغدادي، لقب بالباقلاني لأن والده كان يشتغل بالباقلاء و بيعها فنسب إليها[1]، ولد الإمام الباقلاني سنة 338هـ بالبصرة، و سكن ببغداد[2]، و قد أتيح له أن تتلمذ لطائفة من العلماء الذين جمعوا بين العلم و العمل، و شهروا بالورع و التقوى فكان يقدّر العلم و العلماء و يحب الأدب و الأدباء، و يؤثر مجالستهم على مجالسة الأمراء "و نحن نذكر أبرز هؤلاء العلماء ممن أخذ عنهم العلم و المعرفة، و كان لهم أثر كبير في شخصية ابن الباقلاني و نضوجه العلمي"[3] و من هؤلاء من أخذ عنه الفقه مثل ابى بكر الأبهري المتوفي 375هـ و آخر أخذ عنه الحديث مثل ابو بكر بن جعفر بن مالك القطيعي المتوفي سنة 368هـ. و أخذ علم الأصول من أبو عبد الله محمد بن خفيف الشرازي المتوفى سنة 371 هـ[4].

و المعروف عن الباقلاني أنّه المتكلم على المذهب الأشعري نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري، إذ خطى خطاه، و عمل بطريقته، و ايّد منهجه، و إعتقاده[5]، كان أعرف النّاس بالكلام و أحسنهم خاطرا، و أجودهم لسانا، و أوضحهم بيانا، و أصحهم عبارة و كان سريع الجواب، بارع الإستنباط و يتميز بحب التطويل في المناظرات.

كان إمام متكلمي أهل الحق، و أهل الحديث، و لسان الأمة حتى اطلاق عليه إسم فقيه أهل الدين في زمانه.

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عصام القضاة، الانتصار للقرآن، دار الفتح للنشر و التوزيع، ط 1، 2001، ص 18.

2 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : المرجع نفسه، ص 19.

4 : ينظر للمرجع نفسه، ص 20.

5 : ينظر الباقلاني، تح د/أحمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، دار الجيل، بيروت، الطبعة 1، 1991، ص 10.

كان أوحد زمانه، إنتهت إليه الرياسة في مذهبه فهو المؤسس الثاني للمذهب الأشعري بحيث كان قريب العهد إليه، على رغم نبوغ و قوّة تلامذة الأشعري إلاّ أنّ أحدا منهم لم يبلغ ما وصل إليه الباقلاني.

وصل به الأمر أن ينسب اسمه إليه لشدّة تأثره به، فوجد في بعض الكتب التي ترجمت له " أبو بكر الطيب الباقلاني الأشعري".

وهب الباقلاني حياته، و علمه للدفاع عن عقيدة السلف فله التصانيف الكثيرة المنتشرة للرّد على المخلفين و الملحدين من الجهمية و المعتزلة و الخوارج ... و غيرهم، بأسلوبه المتميّز القائم على أساس الحوار، و النقاش، و قوّة الحجة فما يزال يحارب أعداء القرآن إلى أنّ وفته المنيّة ببغداد سنة 403هـ، و دفنه إبنه الحسن بعد أن صلى عليه في داره بدرب المجوس، ثمّ نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب [1]، فثناه، و مدحه كثير من الأئمة، فعن القاضي أبو بكر رحمه الله يقول اليافعي رحمه الله في كتابه (مرآة الجنان): " هو سيف السنة، و ناصر الملة، الإمام الكبير، الحبر الشهير، لسان المتكلمين، و موضح البراهين و قامع المبدعين، و قاطع المبطلين، الأصولي المتكلم الأشعري المالكي[2].

إذا نظرنا في تاريخ الباقلاني العلمي نلاحظ أنّه وفق حياته على أمرين ملكا عليه أقطار نفسه و هما: التدريس و التأليف.

فأمّا التدريس كان له بجامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة[3]، يأتيه إليها الوفود من طلاب العلم، فقد تتلمذ على يديه مجموعة من البصرين و البغداديين، ... و غيرهم، و نذكر منهم القاضي البغدادي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المتوفى سنة 422هـ[4].

1 : ينظر الباقلاني، تح د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 11.

2 : ينظر الباقلاني، تحقيق، د/محمد عصام القضاة، الانتصار للقرآن، ص 26.

3 : ينظر الباقلاني، تحقيق، د/محمد زاهد بن الحسن الكوثري، الإنصاف فيما يجب إعتقاده و لا يجوز الجهل به ، المكتبة الزهرية للتراث، الطبعة 2، 2000م، ص 8.

4 : ينظر الباقلاني، تح، د/محمد عصام القضاة، الإنتصار للقرآن، ط 1، 2001م، ص 21.

أمّا ما يخص التأليف فلقد كانت له مؤلفات عديدة تقارب الخمسين كتابا، أو تزيد كما ذكرتها كتب التراجيم التي ترجمت له إلاّ أنها لم تصلنا كلها من أهما:

- التمهيد للرّد على الملحدة، كتاب كلامي وردت فيه آراءه الكلامية في مختلف الأبواب وقد نشره الأستاذان محمود محمد الخضري، و محمد عبد الهادي أبو ريدة.
- تمهيد الأوائل و تلخيص الدلائل الذي حققه الشيخ عماد الدين أحمد حيدر.
- الإنصاف فيما يجب إعتقاده، و لا يجوز الجهل به، المسمى بالرسالة الحرّة نشره محمد زاهد الكوثري في القاهرة عام 1369هـ.
- ~~هداية المسترشدين و المقنع في معرفة أصول الدين، مخطوط، منه نسخة في مكتبة~~ الأزهر[1].

وردت العديد من مؤلفاته في كتابه الإنتصار الذي حققه الدكتور محمد عصام القضاة و منها:

- الإبانة عن إبطال أهل الكفر و الظلالة.
- كيفية الإستشهاد في الرّد على اهل الجحد و العناد.
- كتاب الأصول الكبير في الفقه.
- كتاب الرّد على المعتزلة [2]

إلاّ أنّ أشهر ما ألّفه الباقلاني، كتابه إعجاز القرآن، و هو أوّل كتاب يحمل عنوان الإعجاز القرآني و مضمونه، و يعد ترجمة لما في خاطره و ما يجول في ذهنه، معبرا عن آراء السلف الصالح من علماء القرن الرابع الهجري[3]، حيث كان أجود ما ألف في هذا الفن و قد ذكر في مقدمته، أن الذين ألّفوا في معاني القرآن من علماء اللّغة و الكلام، لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته و الدلالة على مكانه مع أنّ الحاجة إلى ذلك أمس، و الإشتغال به أوجب.

1 : ينظر الباقلاني، تح، محمد عصام القضاة، الإنتصار للقرآن، ط 1، 2001، ص 23.

2 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : ينظر رسالة مجستير، توظيف البحث البلاغي في إعجاز القرآن بين الرماني و البقلاني إعداد سحر عطا الله محمد الحسبان، إشراف د/ علي الأبواب، 2006، ص 86.

فكتاب إعجاز القرآن من بين الكتب التي ألفت حول الإعجاز اللّغوي للقرآن، نجده يهتم بقضايا الإعجاز بحيث تختلط فيه القضايا البلاغية، و مباحثها المتعددة، بالقضايا غير البلاغية تنفرد القضايا البلاغية فيه ببعض الفصول.

كفصل في وصف وجوه البلاغة العشرة التي سبق أن أوردها الرّماني في كتابه النكت و فصل خصصه للحديث عن البديع من الكلام، و كذلك تتشارك القضايا البلاغية و الكلامية في الفصل الذي كتبه الباقلاني عن جملة وجوه إعجازه القرآن، تحدث فيه عن المعجزة، و كيف أنّ القرآن معجزة الرسول صلى الله عليه و سلم الكبرى دون غيرها من المعجزات، فهو معجزة التحدي، لا منازع له، كما حدد وجوه الإعجاز في ثلاثة وجوه أساسية نقلها عن أساتذته الأشاعرة.

بيد أنه لا يقف طويلا على الأوجه غير البلاغية و إنما يركز جلّ إهتمامه طوال الكتاب على إبراز الفرق بين كلام الله، و كلام البشر إذ يثبت تميز الأسلوب القرآني، أو البلاغة القرآنية على أسلوب البشر و بلاغتهم.

و قد إنتهج في تناوله الإعجاز منهجا جديدا مغيرا للمناهج التي اتبعها السابقون في إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن.

2- المبحث الثاني: الوجوه الثلاثة لإعجاز القرآن

لقد بعث الله تعالى رسلا، و ايدهم بمعجزات فمثلما كانت عصا موسى (عليه السلام) في أوج إزدهار السحر و مثلما كان سيدنا عيسى (عليه السلام) يبرئ الأكمه في أوج إزدهار الطب، شاء الله أن تكون معجزة رسولنا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة، و التسليم "القرآن الكريم" بلسان عربي مبين، و الإعجاز الحقيقي فيه، إعجاز لغوي حيث أنزل في فترة إزدهار الخطابة، على أمّه لها باعها الطويل في البيان و الفصاحة، و روعة الأسلوب حتى كانت لهم الأسواق، و المنابر و المواسم يعرضون فيها أنفس البضائع و أجود، و أبرع صناعاتهم البيانية، إنّها بضاعة الكلام من شعر و نثر وخطابة التي تعرض على النقاد ليختاروا أحسنها في جوّ من التنافس الشديد ليتفاخروا بما قدّموه، و لتتناقله العرب بعد ذلك تذوقا للغة التي تهذّبت كلماتها، و إختيرت ألفاظها أحسن إختيار، فجاء القرآن المعجزة الكبرى " و من حكمة الله تعالى في خلقه، و سنته في عباده، أنّه حينما يرسل رسولا إلى أمّة يختار معجزة رسالته من النوع الذي نبغ فيه قومه، و من جنس ما تفوقوا فيه، فيأتي بالمعجزة على يد رسوله من هذا النوع و الجنس لتفوق ما نبغوا و برعوا فيه"[1].

"فمعجزة القرآن، معجزة عامة، عمّت الثقلين، و بقيت بقاء العصرين"[2] فيقال من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب، و طرق البلاغة، و الفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف عجزه، و العجز واقع على بني البشر كما هو على الجن، قال تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[3]، فتحددت وجوه الإعجاز عند الباقلاني في ثلاثة أوجه نقلها عن الأشاعرة و هي:

1 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ط 1، 1984، ص 35.

2 : ينظر الباقلاني، تح: د/ محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 55.

3 : الإسراء، آية 88.

2.1- الإعجاز الغيبي:

تضمّن القرآن الإخبار عن الغيب، فهو الإخبار الصادق للغيوب و هو الأمر الذي يخرج عن طوق البشر و استطاعتهم "فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه و سلم، أنه سيظهر دينه على الأديان"[1] قال تعالى:

(هُو الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[2] قال ففعل، و كذلك في قوله سبحانه و تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)"[3]، و ذلك في قصة أهل بدر و حصل ذلك فعلا لما هزمت قريش حيث، نبأ الله،سيدنا محمد (ص) بذلك قبل حدوثه، و غيرهم من الآيات الكثيرة التي تتضمن الإخبار و التنبؤ بالغيب.

2.2- أمية النبي صلى الله عليه و سلم:

إتيان القرآن بجمل ما حدث من عظائم الأمور و مهمات السير، من بدء الخليقة إلى بعثة النبي، بحيث أخبره القرآن عن قصص الماضين، و سير الأمم الأوّلين سير الأمم الخالية منذ عهد آدم، و كيف خلقه الله، فقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، و تاريخ الأمم مثل: قصة سيدنا موسى، و يوسف و غيرهم، و قصة سيدنا آدم عليهم السلام، و إبتداء خلقه، و ما صار إليه أمره من الخروج من الجنة ثمّ جملا من أمر ولده، و أحواله و توبته[4] و كل هذا. و الرسول (ص) كان أميا لا يعرف شيئا من كتب السابقين و أنبائهم و قصصهم، و أخبارهم حيث كان (صلى الله عليه و سلم) لا يعرف القراءة، و لا يخط بيمينه، و لم يكن ملابسا لأهل الآثار، و جملة الأخبار، لا يقرأ و لا يكتب ، ليتّهم أنّه أخذها من كتب وقعت إليه، و إنما كان وحيا يوحى قال عزّ و جلّ: (وَ مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[5].

1 : ينظر الباقلاني، تح، د/السيد أحمد صقر،إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر ص 48.

2 : التوبة، آية 33.

3 : القمر، آية 45.

4 : ينظر الباقلاني، تح: د/عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 85.

5 : العنكبوت، الآية 48.

2.3- الإعجاز البلاغي:

إن القرآن الكريم متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[1]، و ذلك بنظمه البديع و تأليفه العجيب و بلاغته المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها، فالإعجاز واقع في النظم و التأليف، و الرّصف، فترجع بداعة نظمه لمخالفته لما عهد العرب من أساليب التعبير، و اشتماله على الفصاحة، فهو أعلى منازل البيان و أعلى مراتبه، جمع وجوه الحسن و أسبابه، و طرقه و أبوابه من تعديل النظم، و سلامته و حسنه، و بهجته، و حسن موقعه في السمع، و سهولته على اللسان، و وقوعه في النفس موقع القبول[2]، فيثبت له من ذلك الإعجاز الجمالي في النظم.

نلاحظ أن الباقلاني لم يركز طويلا على الوجهين الأولين و إنما وجه تركيزه و عنايته إلى الوجه الثالث البلاغي محاولا إثبات تميز الأسلوب القرآني، و البلاغة القرآنية على أسلوب البشر فحصر الوجه البلاغي للإعجاز القرآني أي بديع نظمه في عشرة وجوه.

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 51

2 : الباقلاني، تح: د/السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن ، ص 419.

3- المبحث الثالث: الوجوه العشرة للإعجاز بالنظم

يقسم الباقلاني الإعجاز بالنظم إلى عشرة أوجه بعضها يرجع إلى القرآن في جملته. و بعضها يرجع إلى بعض أساليبه، و بعضها يرجع إلى مفرداته و بعضها الآخر يرجع إلى حروفه.

3.1- الوجه الأوّل

فأمّا ما يرجع على جملته فكون نظم القرآن خارجا عن المألوف من كلام البشر و المعروف في تنظيم خطابهم فليس هو بالشعر و لا بالنثر.

3.2- الوجه الثاني

القرآن ليس سجعا و لا هو من جنس كلام البشر، "إنّه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة و الغرابة، و التصرف البديع، و المعاني اللّطيفة، و الفوائد الغزيرة، و الحكم الكثيرة و التناسب في البلاغة، و التشابه في البراعة، و على هذا الطول و على هذا القدر"[1] و إنمّا عرفت لهم مقطوعات نثرية قصيرة، و قصائد شعرية معدودة لم تخل من نقص و عيب.

3.3- الوجه الثالث

ممّا يرجع إلى جملته كذلك أغراضه، و مراميه من قصص، و مواعظ، و أحكام و ترغيب و ترهيب، و حكم، و تبشير و تخويف[2] إلاّ أنه لا يتفاوت في بلاغته، فهو دائما على درجة واحدة من البلاغة السامية.

بينما نجد أنّ الشعراء و الأدباء و المجيدين، إنمّا يجيدون في بعض الأغراض دون سواها فالذي يجيد المدح لا يجيد الهجاء "و منهم من يبرز في الهجو دون المدح، و منهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، و منهم من يجود في التأبين دون التقريظ"[3] و كذلك الذي يبدع في الخطب يعجز عن الحكم و الأمثال.

1 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 87.

2 : ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : الباقلاني، تح: د/ السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 54.

3.4- الوجه الرابع

رغم جودة نظم الشعراء إلاّ أن كلامهم يتفاوت، تفاوتًا بينًا في الفصل و الوصل و العلو النزول، و التقريب و التعبيد و غيرها من النظم[1] خلاف ما في القرآن، فبلاغته لا تتفاوت في الإنتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، و لا من طريقة من طرق القول إلى طريقة أخرى.

3.5- الوجه الخامس

نبه الله تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فقال أنّه لو اجتمعت الإنس و الجن و اتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ما استطاعوا، و لو تعاونوا و تساعدوا، و تظافروا فنظم القرآن وقع موقعا في البلاغة تخرج عن عادة كلام الإنس، كما يخرج عن عادة كلام الجن، فالجن يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا[2].

3.6- الوجه السادس

إشتمل القرآن على كل أساليب البلاغة التي تبنى عليها أجناس الكلام البشري من إيجاز إطناب، و مجاز و حقيقة من الإستعارة و تصريح "و كل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم في الفصاحة و الإبداع و البلاغة"[3].

3.7- الوجه السابع:

تلك الألفاظ البديعة، و المتوافقة بعضها، بعضا في اللطف و البراعة مما يتعذر على البشر.

3.8- الوجه الثامن:

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/ السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 56.

2 : ينظر المرجع نفسه، ص 57.

3 : المرجع نفسه، ص 62، 63.

إذا أخذنا آية قرآنية، و وضعناها في ثنايا أيّ كلام نظاما كان أو نثرا، فإنها تكون واسطة العقد في هذا الكلام (كالدّرة التي ترى في عقد من الخرز) على حد تعبيره فيرى وجه رونقها باديا، غامرا، سائر ما تقرن به... فهي كالياقوتة في واسطة العقد.[1]

3.9- الوجه التاسع:

أمّا ما يرجع إلى حروفه، فهو أن القرآن ثمانية و عشرون سورة، إفتتحت بحروف مقطعة من حروف اللغة العربية التسعة و عشرون، وقد اشتملت هذه السور على أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء، اي نصف حروف المعجم، و يتمثّل في نصف كل قسم من الأقسام التي انقسمت إليها حروف العربية فمنها:

المهموسة منها عشرة و هي: [الحاء، الهاء، الخاء، الكاف، الشين، الثاء، الفاء، التاء، الصاد، السين] و نصف حروف الجهر: [العين، الحاء، الهمزة، الهاء، الخاء، الغين] و هذه الحروف الستة اشتملت على نصف حروف الحلق، و كذلك على نصف حروف الإطباق و هي فما سواها منفتحة [الطاء، الظاء، الضاد، الصاد] نصفها في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور، و نصف الحروف الشديدة[2] (الإنفجارية) و هي تمنع الصوت أن يجري فيه و هي:[الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الظاء، الذال، الطاء، الباء].

3.10- الوجه العاشر:

إمّا ما يرجع إلى مفرداته، فيستخدم القرآن مفردات لها معان، و مدلولات جديدة، لم تكن مألوفة لدى العرب قبل نزوله "فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر و الصنعة المتكلفة و جعله قريبا إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب[3] من الواضح أن ما تشترك فيه كل هذه الوجوه هو مخالفة بيان كلام الله لكلام البشر، حيث يرجع الباقلاني إعجاز القرآن إلى بداعة نظمه، فليست معجزة بحد ذاتها، و إنمّا في اتصالها، فهو ينفي عن القرآن الأوصاف التي عهدها العرب.

1 : ينظر، الباقلاني، تح: د/ السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 64

2 : ينظر، الباقلاني، تح: د/ السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 67.

3 : المرجع نفسه، ص 69

اشتماله على الفصاحة، و عدم التفاوت، مما يؤكد سمو النظم القرآني، و عظمة أسلوبه و يتضح ذلك بمقارنة النص القرآني، بالنصوص العربية التي كان العرب يفتخرون بها في مجال الشعر، و النثر، و بعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه، واضح الإعجاز، متميز الخصائص رائع النظم، مشرق العبارة ، بليغا في اختيار مفرداته فيبتعد عن المبهمة الغامضة، و يستخدم كلمات سهلة، و واضحة فهو مخالف للمألوف من كلام العرب الموزون، و المنثور بضربيه من السجع و الترسل، فهو فريد تطرد فيه البلاغة إطرادا يشمل جميع آياته، فهي متناسبة رغم طوله "بل وجدوا إتساقا بهر العقول و أعجز الجمهور و نظاما و إلتئاما، و إتفاقا و إحكاما"[1].

فالهدف السامي لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني هو بيان وجوه الإعجاز القرآني، بحيث جعل الألوان البلاغية فيه وجه من وجوه إعجازه، و يثبت في القرآن من موسيقاه، و من حيث نغمه لونا لا يتصدى له البشر "حتى اعترف ببلاغته المشرك و المؤمن على سواء"[2] فبحسب ما يترتب من نظمه عجيب تأليفه و بديع مقتضياته مدخل إلى القلوب، و مسلك إلى النفوس، أي له وقع في القلب و تمكن في النفس، فيه ما يذهل و يبهج، ما يقلق و يؤنس ما يضحك، و يبكي، فيهز الأعطاف و يستميل نحوه الأسماع[3].

1 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن ، ط 1، 1989م، ص 38.

2 : المرجع نفسه، ص 35.

3 : ينظر الباقلاني، تح: د/السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 419.

4- المبحث الرابع: موقف الباقلاني من وصف وجوه البلاغة

إهتم كتاب إعجاز القرآن، بقضايا الإعجاز، خاصة بالوجه البلاغي فيه، و أطال الحديث في هذا الوجه "إنمّا يوضح الفرق بين كلام الله الذي لا يختلف في مستواه البياني بل بلغ القمة في بلاغته في سائر الوجوه"[1]، و ليدلل على عظمة البيان الإلهي، و إعجازه البلاغي "لا تفاوت فيه و لا إنحطاط عن المنزلة العليا و لا اسفال فيه إلى المرتبة الدنيا"[2].

لعل البليغ المتناهي في صنوف البلاغات أعلم بأن عجزه و عجز غيره في هذا الباب سواء فلبيان الأسرار البلاغية في القرآن خصص الباقلاني فصلا في وصف وجوه الإعجاز، و لخص فيه أقوال و آراء الرّماني[3] فحتى و إن لم يصرح بإسمه إلا أنّه شديد التأثر بأفكاره التي يبين فيها أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة التي حددها في عشرة أقسام: الإيجاز، و التشبيه، الإستعارة و التلاؤم، الفواصل و التجانس، التصريف، و التضمين المبالغة، و حسن البيان[4].

و قد أشبع هذه الوجوه البلاغية شرحا، و تحليلا، و تفسيرا و تمثيلا و ألحق بكل واحدة منها ما يؤيد وجهة نظره، و استشهد بكثير من الآيات القرآنية و الشواهد الشعرية و النثرية فنشير إليها بإختصار، هذه الوجوه هي:

4.1- الإيجاز

"تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى"[5]، أي أن الألفاظ القليلة المؤدية لمعاني كثيرة هي الإيجار أتى به الباقلاني في كتابه على أنّه اللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة كقوله تعالى: (طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ).

الطاعة: كلمة واحدة تشمل تنفيذ جميع الأوامر الصادرة عن الله و رسوله (ص).

1 : د/المحمدي بن عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ط 1، 1984م، ص 216.

2 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : هو ابو الحسن علي بن عيسى الرّماني ولد سنة 296هـ ببغداد، كان إمما في العربية، و علامة في الأدب، له تصانيف في النحو و الفقه، و الكلام و كان معتزليا

4 : ينظر: الباقلاني: تح: د/أحمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 294.

5 : د/المحمدي بن عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 139.

قول معروف: التخلق و خطاب الآخرين بلطف و غيرها من معاني مقترنة به من علاقات الفرد بالمجتمع.

4.2- التشبيه

"و أمّا التشبيه بالعقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسدّ الأخر في حسّ أو عقل"[1] أي تشبيه حسي و تشبيه عقلي فمثل له الباقلاني من القرآن بآيات عديدة و نأخذ منها قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[2].

شبه الله تعالى حياة الدنيا بدورة حياة النبات فطفولة يتبعها إزدهار بشباب ثم هرم و فناء.

4.3- الإستعارة

عرّفها الرّماني في كتابه النكت في إعجاز القرآن "الإستعارة تعليق العبارة على غير ما وصفت له في أصل اللغة على وجه النقل للإبانة"[3] فهي استعمال كلمات لغير ما وضعت له في أصل اللغة.

أمّا عند الباقلاني:"و هو بيان التشبيه"[4] و من القرآن قوله جلّ و علا: (... حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...)[5].

الأوزار: جمع وزر يفيد أنّه يثقل صاحبه، و أصله الثقل.

تضع الحرب أوزارها اي يضع المحاربون أسلحتهم و تنتفي الحرب فشخص الحرب على أنّها محارب يضع السلاح.

1 : ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: د/أحمد عبد المغنم خفاجي، ص 290.

2 : يونس، الآية 24.

3 : ينظر الرماني، تح:د/ زغلول سلام و د/ محمد غلف الله، النكت في إعجاز القرآن، دار المعارف، دت، ص 79.

4 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 296.

5 : محمد، آية 4.

4.4- التلاؤم

و هو عكس التنافر "التلاؤم: نقيض التنافر، و التلاؤم: تعديل الحروف في التأليف"[1] و القرآن كله في الطبقة العليا من التلاؤم الذي هو حسن الكلام و سهولته في اللفظ، و وقع المعنى في القلب، و نذكر مثال في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[2].

تلاؤم في الفعلين "أبلغي" و أقلعي".

4.5- الفواصل

هي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني فالفواصل بلاغة، و الأسجاع عيب لأن السجع يتبعه المعنى و الفواصل تابعة للمعنى فيقول الرّماني الفواصل بلاغة و الأسجاع عيب و ذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، أمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها ففي قوله تعالى:

(و الطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ(4) وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))[3].

4.6- التجانس

"فالتجانس و المجانسة، التجنيس و الجناس كلها معنى واحد"[4] و هو بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللّغة سمي جناسا لما فيه من المجانسة اللفظية و هو ضربين:

المزاوجة: كقوله تعالى: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[5].

1 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 183.

2 : هود، الآية 44.

3 : الطور، الآيات من 1 إلى 6.

4 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 193.

5 : آل عمران، الآية 54.

المناسبة: قال تعالى: (... يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)[1]. **معنى تتقلب:** تضطرب من الخوف.

4.7- التصريف

"تصريف المعنى في المعاني المختلفة"[2]، و تصرفه في الدلالات المختلفة فهو بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهر و تدل عليه كتصريف "الملك" في عدّة معاني (مالك، ملك، المليك، التمليك...) " أمّا تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد جاء في القرآن في غير قصة منها قصة موسى عليه السلام ذكرت، في سورة الأعراف و في طه، و الشعراء و غيرها لوجوه من الحكمة، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان من أعلى مرتبة"[3].

4.8- التضمين

هو أنّ يضمن المتكلم كلامه من بيت أو من آية أو معنى مجردا من كلام أو مثلا سائرا أو جملة مفيدة أو فقرة من الحكمة[4]، و التضمين الجيد إذا نبه المتكلم أنّه أخذه من غيره.

يشير الباقلاني إلى أنّ التضمين كله إيجاز و هو على وجهين: تضمين توجيه البنية: ككلمة (معلوم) توجب (عالم).

تضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به كضارب يدل على المضروب و لقد نقل بإيجاز ما قاله الرّماني في باب التضمين[5].

4.9- المبالغة

---

1 : النور، الآية 37.

2 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 198.

3 : د/ المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 199، و ينظر، الرماني،النكت في إعجاز القرآن، ص 93.

4 : المرجع نفسه، ص 200.

5 : ينظر الباقلاني، عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 300.

عرّفها الرماني:" البلاغة هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة"[1] و في كتاب إعجاز القرآن هي الدلالة على كثرة المعنى و المبالغة باللفظة التي هي صفة عامة.

مبالغة في الصفة المبنية لذلك كقوله (الرحمان) و (غفّار) (شكور) و غيرها لا يجوز أن تنسب إلاّ على الله عزّ و جلّ لأنها صفات تدل على معنى لا يكون إلاّ لله.

مبالغة في اللفظة التي هي صفة عامة كقوله تعالى: (... خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...)[2].

4.10- حسن البيان

و ينتهي الباقلاني إلى حسن البيان و يقسمه إلى أربعة أقسام كلام وحال، إشارة و علامة.

و لتحقيق علو مرتبة البيان يجب تحقيق أربعة خصائص و هي حسن الوقع في السمع و الخفة على اللسان، و حسن التقبل في النفس و أن يكون المقال على قدر المقام[3] و يقع التفاضل في البيان في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))[4].

علّم القرآن: يسّر فهمه . **علمه البيان**: علمه النطق و الإفصاح عما في داخله.

بعد أن ينتهي الباقلاني من تلخيص آراء الرّماني حول هذه المباحث التي يعتبر كل واحد منها وجه، من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن. يشير إلى أنّ البعض يرى أنّه من الممكن التّوصّل إلى إثبات إعجاز القرآن من هذه الوجوه، بيد أنه يرفض هذا الرأي ثم يقرر أن هذه الوجوه العشرة تنقسم إلى قسمين.

---

1 : د/ المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 204.

2 : الأنعام، الآية 102.

3 : ينظر، د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 209/210

4 : الرحمان، الآية 1 إلى 4.

الأوّل: ما يمكن الوقوف عليه و التّعمّل له، و يدرك بالتّعلم بحيث إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب و التعود و التّصنّع لها، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به[5].

الثاني: "أمّا ما لا سبيل إليه بالتّعمّل من البلاغات، فذلك لا يقدر البشر التصنع له و التوصل إليه فذلك هو الذي يدل على الإعجاز"[2] و يضرب لذلك مثلا، بأننا لو قلنا بأن ما وقع من تشبيه في القرآن معجز في حد ذاته، فسوف تعرض علينا ما لا يعد و لا يحصى من تشبيهات رائعة و بديعة تشبه السحر.

و يتوصل الباقلاني من ذلك إلى أن هذه الوجوه البلاغية غير معجزة في حدّ ذاتها أي ليست الأصل في الإعجاز، و إنّما تدخل في مقدماته من حيث أنّها دعامة في بناء الأسلوب و النظم الرفيع و بالتالي فالمعجز من هذه الوجوه هو:

أولا: حسنها البالغ و سموها.

ثانيا: ارتباطها و اتساقها مع بقية الكلام، و على نحو بالغ الروعة و التكامل.

قرر الباقلاني من جعل الألوان البلاغية أمورا متعلقة بالإعجاز، لكنها ليست الأصل الذي يحدث بسببه الإعجاز[3].

فالإعجاز البلاغي للقرآن في النظم و التأليف على طريقة مخصوصة إذ هو أسلوب فريد تطرد فيه البلاغة اطرادا يشمل جميع آياته دون أن يحس القارئ بأي قدر من التفاوت البلاغي في هذا الكلام الإلهي المخالف للمألوف و الخارج عن مقدرة الإنس و طوق الجن.

---

5 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 301.

2 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : ينظر: د/ المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 227

1-المبحث الأول: حكمه من الصّرْفة القائلة عند المعتزلة

كانت قضية التحدي مثار اهتمام الباقلاني فهو في صدد الدفاع عن القرآن، و مواجهة الذين نسبوا إليه ما ليس فيه فلقد وقع التحدي و ثبت العجز، إلاّ أن بعض المعارضين ذهب إلى تحليل عجزهم، بأنّ الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة، و سلبهم الداعي لتقوم الحجة فحجتهم ضدّ القرآن القول بالصَّرْفة، بفتح الصاد، و سكون الراء و الصّرف هو ردّ الشيء عن وجهه.

" و القول بالصَّرْفة أصبح مذهبا له أنصاره، و هم بعض المعتزلة و غيرهم أمثال المرتضى من الشعة، و ابن حزم الظاهري، و أوّل من قال به شيطان(كذا) المتكلمين أبو إسحاق ابراهيم بن سيار النظام – أستاذ الجاحظ"[1].

و يقول الرّماني عن الصرفة :"أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة[2]، فيزعمون أن القوم لم تكن لديهم رغبة في المعارضة و أن الله صرف عنهم دواعيها مع قدرتهم عليها.

و يضيفون أن عجز العرب لم يكن لعجز ذاتي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن من ألفاظ و معان و نسج و بيان و نظم، و إنما الله صرفهم عن قدرة تأليف كلام مثله، بحيث أن معجزته ليست في درجة من البلاغة و الفصاحة تمنع محاكاته و تعجز عليه القدرة البشرية بل هو ككلام الناس لا يزيد عليه بشيء في بلاغته، فالملحد يزعم أنّه ليس في القرآن كلّه إعجاز[3].

إلا أن الباقلاني لا يرضي بهذا الرأي مذهبا في الإعجاز القرآني فلو كان الإعجاز بالصرفة ما قام التحدي عن الإتيان بمثله فيرد على المعتزلة بردود مقنعة، فتأكيدا لبطلان مذهب الصَّرْفة يقول الباقلاني :"أنّه لو كانت المعارضة ممكنة، و إنما منع منها الصَّرْفة لم يكن الكلام معجزا و إنما يكون المنع و الصَّرْف معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه[4].

1 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 271.

2 : ينظر الباقلاني، د/السيد أحمد صقر إعجاز القرآن، ص 13.

3 : ينظر المرجع نفسه، ص 389

4 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 79.

و يرى أن الصَّرْفة نوع من العبث ينبغي على المتكلمين عامة و على المعتزلة خاصة أن ينهزوا أنفسهم، و عقولهم إذ كيف يطالب الله العرب الفصحاء و البلغاء الإتيان بمثل القرآن، أو الشيء منه تحديا لقدرتهم البيانية في حين يسلبهم القدرة على معارضته، و صرف خواطرهم عن تأليف كلام مماثل له فلو أننا سلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة صرفوا عن معارضة القرآن و الإتيان بمثله كما يزعمون، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمّا كان يعدل به في الفصاحة و البلاغة، و حسن النظم، و عجيب الرصف[1].

"فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصّرْفة ظاهر البطلان"[2] و هذا ما يتفق فيه مع غيره من الأشاعرة و معظم البلاغين، فالجرجاني مثلا يأتي على بطلان مذهب الصّرْفة، و يقول:"أنهم لو أدركوا كونهم عاجزين بعد أن كانوا قادرين لقالوا للرسول صلى الله عليه و سلم: إنّا كنّا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، و لكنك قد سحرتنا، و حلت بما جئت به بيننا و بين مقدرتنا على معارضته"[3]، و الأصح أن القرآن أثار فيهم الدواعي، و هيج لها نفوسهم ليبذلوا أقصى ما عندهم فلم يستطيعوا "فيؤكد الباقلاني أن القرآن معجز بنظمه و ليس كما يقول أصحاب الصرفة"[4]. فلو كانت الصرفة وجه للإعجاز، لما كانت الحاجة حينئذ لمجيء القرآن في هذا النظم البديع.

كرس الباقلاني جلّ جهده للردّ على الفِرَقْ الإسلامية الذين عللوا الإعجاز القرآني بالصّرْفة فحقيقة الإعجاز القرآني عنده أنّه لا يقدر عليه العباد لأنّه لو قدروا عليه لبطل الإعجاز.

1 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن ، ص 78.

2 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 273.

4 : المرجع نفسه، ص 272.

2-المبحث الثاني: نفي السجع من إعجاز القرآن

...قد قال الملحدون و أشياعهم من الطاعنين على النبوة و التوحيد أنّ القرآن مدخول و إنه غير ثابت و لا مضبوط...و أن فيه لحنا و تناقضا و فسادا كثيرا[1] فنسبوا إليه ما ليس فيه، و من بين ما لا يرضى به الباقلاني، السجع و هو تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد، و هو في النثر كالقوافي في الشعر[2] بمعنى أوضح هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من الكلام المنثور.

معنى السجع كما يقول الباقلاني "قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد"[3]. فعقد فصله السادس في كتابه إعجاز القرآن (عن نفي السجع من القرآن)، إلاّ أنّه في الحقيقة لم يكن من بنات أفكاره و لكنه ردّد ما ذكره الرّمّاني من أن فواصله تباين السجع مبيانة تامة و يتأثر كذلك بفكرة الجاحظ ذهب فيها إلى أن مرجع الإعجاز إلى نظمه و أسلوبه العجيب المباين لأساليب العرب في الشعر و النثر و ما يطوى فيه من سجع فقد شدد النكير على وجود السجع في القرآن الكريم متأثرا أيضا بمذهب الشاعرة فيقول:"ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن[4].

يرد الباقلاني على الذين يزعمون أنّ في القرآن سجع، بأنّ هذا غير صحيح، و لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب و لو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجازه... و لو كان في القرآن سجع لجاز أن يقولوا هو سجع معجز، و يتبع ذلك أن يقولوا شعر معجز[5].

فيؤكد الوهم في من قال بسجع القرآن فيقول : "...الذين يقدرونه أنّه سجع فهو وهم"[6].

فكيف يكون كذلك و السجع مما يألفه الكهان من العرب، و نفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات[7] فقد كانت في الجاهلية طائفة من العرب تحترف

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عصام القضاة، الإنتصار للقرآن، ص 67

2 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 110.

3 : المرجع نفسه، ص 111.

4 : المرجع نفسه، ص 110.

5 : المرجع نفسه، ص 111.

6 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 111.

الكهانة و تدّعي علم الغيب و في سبيل ذلك كانت تتكلف القول و تتصنع السجع و يكون لكلامها وقع عند ذوي النفوس الضعيفة غير أن سجع هؤلاء الكهان كان ثقيلا على السمع، كريه الوقع على الآذان، فلو كان في القرآن سجعا لكان مذموما، و مرذولا مثلما هو عليه كلام الكهان فالسجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام[1] فلتنزيه القرآن الكريم عن الوصف اللاحق بغيره من كلام الكهنة جاء قول الرماني (الفواصل بلاغة و السجع عيب).

لهذا لم يسمّ الباقلاني الفواصل التي تماثلت حروفها في المقاطع سجعا رغبة في تنزيه القرآن الكريم عن الوصف اللاحق بغيره من كلام الكهنة، فلو كان القرآن بهذه الصفات لما تحيرت فيه العرب و لما كانت الطباع تعدوا إلى المعارضة لأن السجع غير ممتنع عليه بل هو عادتهم، و من جوّز السجع في القرآن، فقد سلم بوقوع الخبط في طريقة النظم، و يكون قد استهان ببديع نظمه و عجيب تأليفه فيقول: "و لا بدّ لمن جوّز السجع فيه و سلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم النظّام المعتزلي المتوفى عام 221هـ . و عباد بن سليمان الصيمري من أعلام المعتزلة و هشام بن عمرو الشيباني الفوطي و يذهب مذهبهم في أنّه ليس في نظم القرآن و تأليفه إعجاز[2]. غير أن القرآن مخالف لما عهده العرب في الشعر و سائر أصناف كلامهم الدائر بينهم بل هو على غير ما ألفوه من نظم و تركيب لأنّه يحتوي على كلّ فنون الفصاحة.

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن ، ص 112.

2 : المرجع نفسه، ص 119.

3-المبحث الثالث: رفض إثبات الإعجاز بالبديع

عكف العلماء على دراسة وجوه المحاسن في البديع، كان بديع القرآن يأخذ حظا كبيرا من هذه الدراسات، و منهم من جعله دالا على إعجازه، ما دفع الباقلاني لذكر قضية البديع أثناء حديثه عن الإعجاز فيطرح سؤال: هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز، "إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من بديع؟[1]

يعرض الباقلاني ثلاثين لونا من البديع، و هو في ذلك يتعرض لها من زاوية خاصة فنقل جملة منها مع بيان معانيها و أورد لها أمثلة من القرآن و الشعر و النثر[2]. فيتحدث عن الإستعارة و الأرداف و التشبيه، المماثلة، و يذكر المطابقة و الجناس، و الموازنة، و يذكر المساواة على أنّها ضرب من البديع، فتحدث عن الإشارة و المبالغة و الغلو و الإيغال و التوشيح، صحة التقسيم و صحة التفسير و كذلك التكميل، و التتميم، الترصيع مع التجنيس ضِفْ إليها التكافؤ و المضارعة و باب التعطف و ذكر مع البديع أيضا الكناية و التعريض العكس و التبديل، و ذكر الإلتفاف و التذييل و الإستطراد، و ذكر من ضروب البديع التكرار و الإستثناء.

من الملاحظ أن الباقلاني يستخدم مصطلح البديع بمفهوم عام و شامل حسب ما كان متعارف عليه في عصره، فالبديع عنده يشمل كل المباحث.

لم تكن في عصره قد تحددت و استقلت في: علم البيان، و المعاني، و البديع مثلما هي الآن فهو يرى الإستعارة و التشبيه مثلا من البديع و هما الآن من أهم مباحث علم البيان. كذلك المساواة و الإطناب يعتبرهما من البديع و هما أصبحا من موضوعات علم المعاني و لكثرتها و قفنا على بعض منها و التي تحدث عنها بإسهاب نذكر منها:... ذكروا أن من البديع في القرآن[3] الإستعارة نجدها في كلامه تعالى لتدلنا على المطلوب في أوجز تعبير و أسرع تأثير في قوله تعالى:(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)[4].

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 120.

2 : ينظر، د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن، ص 225.

3 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 120.

4 : مريم، آية 4.

و من بديع الإستعارة قوله عزّ و جل: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ...)[1] فهل للذل جناح؟ لكن الله تعالى اختار أحسن اللفظ لوصف تذلل الولد بين يدي والديه.

و ذكر من البديع المطابقة و أكثرهم على أنّ معناها أن يذكر الشيء ضدّه: كالليل و النهار و السواد و البياض[2] ذكر شواهد لها في القرآن منها قوله: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)[3].

و يعدون من البديع المقابلة، و نظيرها في القرآن: قال الله تبارك و تعالى: (... ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54))[4].

كذلك الإشارة من البديع نجدها في مواضع كثيرة من القرآن " و هي اشتمال اللّفظ القليل على المعاني الكثيرة "[5]، و ضدّه التذييل باب من أبواب البديع و هو من التأكيد و مثلا قول الله عزّ و جلّ: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ...)[6].

أمّا التكرار فنظيره في القرآن قال تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(6))[7]

يجيب الباقلاني على ما ذكره من ضروب البديع بقوله:"...قدر مقدرون أنه يمكن إستفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها[8]، بل كان يلح على انتقاد البديع و أنّه لا سبيل إلى معرفة القرآن به، و إنّما يعدّه أدوات فنية تعبيرية تكتسب قيمها الفنية من الدور التعبيري الذي تؤديه فهي لا يقتضيها المعنى و لا يستلزمها السياق "و ذلك أنّ هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة و يخرج عن

1 : الإسراء، آية 24

2 : ينظر الباقلاني، تح، د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 133.

3 : الروم، آية 19

4 : النحل، آية 53، 54

5 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 142.

6 : القصص، آية 4

7 : الشرح، آية 5 و 6.

8 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 159

العرف[1]، فما أراد قوله هو أنّ الإعجاز لا يستفيد من أبواب البديع لأنّه ليس خارقا للعادة، و يمكن التّوصل لتلك البواب بتعلّمها "لأنّ هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها، أمكن التّوصل إليها بالتدريب و التعوّد و التصنّع لها"[2].

إلاّ أنّ القرآن يسمو عن التزيين و التحسين و التصنيع " و الوجوه التي نقول أن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له، و التوصل إليه بحال[3].

فعمدنا أن نمثل فيما سبق من أبواب البديع بآيات من القرآن الكريم دون الشعر و النثر لأن همنا الأوحد معرفة فائدة البديع في معرفة الإعجاز. إلا أنّه رغم ذكر الباقلاني فنون البديع الواردة في القرآن، فإنه لم يرى سر الإعجاز فيه و يتفق معه عبد القاهر الجرجاني بحيث يرى: "أن ألوان البديع في القرآن لا تكون وجها من وجوه الإعجاز القرآني بل هي من مقتضيات الأسلوب المعجز في القرآن[4] بل إن بيان القرآن أشرف بيان، و أهداه و أكمله و أعلاه و ابلغه و أسناه.

يقلل الباقلاني من أهمية البديع لمعرفة أسرار إعجاز القرآن و يقسمه إلى قسمين و هما:

الأوّل: قسم يمكن الوقوع عليه و التعمل له: يدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة الإعجاز القرآني به.

الثاني: أمّا هذا القسم ما لا سبيل إليه بالتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على إعجازه.

1 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 162.

2 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 159.

3 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي ، إعجاز القرآن، ص 159.

4 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآني، ص 227،228.

1- المبحث الأول: التحدي و المعارضة

إنّ المعجزة أمر خارق للعادة، و مقرون بالتحدي، و سالم عن المعارضة.

أيّد الله تعالى، نبيّه الكريم بالكثير من المعجزات إلاّ أنّها قامت في أوقات خاصة و أحوال خاصة، و على أشخاص خاصة[1]، فهي في الواقع معجزات وقتية، زالت بزوال عصر النبوّة، فلم يشاهدها إلاّ من حضرها.

أمّا معجزته الكبرى القرآن الكريم، فهي معجزة خالدة لتأثيرها الدائم، و مفعولها المستمر، بل معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، و خرقها للعادة في أسلوب القرآن و بلاغته، و أنّه أنزل على رسول أميّ لم يتل كتابا، و لم يخط بيمينه[2]، بلسان قومه فيقول سبحانه وتعالى:(وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)[3]، أنزل في أمّة بلغت منزلة عظيمة في البيان فكانوا خصوما ألداء و أعداء أشداء، أوتوا حظا من نضج الفكر، و بلاغة القول، و عزة النفس، فشاء الله عزّ و جلّ أن يجعل سرّ معجزته فيما يبرعون فيه، فتحداهم القرآن ببلاغته السامية أن يأتوا بمثله، إلاّ أنّهم عرفوا رغم معارضتهم للدعوة أنّه كلام لا يمكن لأي أحد محاذاته و لو بلغ ما بلغ من البيان و الفصاحة.

"و تحدي القرآن لأمراء البيان في عصر التفوق البلاغي، إنما لحكمة"[4] بحيث أن حكمة الله واضحة و هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عن تحدي كلامة في أي زمان و مكان فلا يقدر عليه الإنس و الجان. فهذا التحدي و العجز لا يخص فقط بني البشر و إنّما هو واقع على الإنس كما الجن و ذلك في قوله تبارك و تعالى:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[5].

1 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 50.

2 : ينظر المرجع نفسه، ص 41.

3 : النحل، آية 103.

4 : المرجع نفسه، ص 43.

5 : الإسراء، آية 88.

إلاّ أنّهم أنكروا هذا التفوق، و لم يقبلوا الهزيمة بل قالوا حين سمعوا، و تليت عليهم آيات القرآن، ما رواه القرآن (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[1] فجاء التحدي في قوله: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)[2] فحاولوا، إلاّ أنّهم عجزوا، فأخذتهم الحيرة، بماذا يرمون الرسول صلى الله عليه و سلم. حتى لا تذعن له القبائل، و حتى لا تسلم لقرآنه البطون"[3] فقالوا، قال الله تعالى: (..إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ..)[4].

فتدنى التحدي، و يرد عليهم القرآن في قوله تعالى: (... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[5].

و بلغ التحدي مداه، و ذروته عندما تحداهم الرسول (ص) بأن يأتوا، و لو بسورة واحدة تمثاله في لفظه و نظمه و فصاحته، و أسلوبه، و ذلك مبالغة في التحدي و تصغيرا للشأن، بالنزول عن التحدي من مثل القرآن كلّه إلى سورة بل آية واحدة.

يقول الله تعالى: (...قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[6].

فلم يفعلوا، فبان عجزهم، حتى و إن طال التحدي و تدني، و كانت الألفاظ ألفاظهم و الحروف حروفهم التي ألفوها.

فقال الباقلاني: "إنّهم لو كانوا قادرين(كذا)، على معارضته و الإتيان بمثل ما أتى به، لم يجز أنّ يتفق منهم ترك المعارضة، و هم على ما هم عليه من الذّراية، و السلاقة، و المعرفة بوجوه الفصاحة[7]، و هو يستطيل عليهم، فيضيف "و أمّا من كان من أهل صنعة العربية و التقدم في

---

1 : الفرقان، الآية 5.

2: الطور، الآية 34.

3: د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 12.

4: الفرقان، آية 4.

5: هود، آية 13.

6: يونس، آية 38.

7 : الباقلاني، تحقيق، السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، ص 31.

البلاغة و معرفة فنون القول و وجوه المنطق، فإنّه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله"[8] فرضخوا للواقع، و قبلوا الهزيمة بأنّهم عجزوا عن مباراته، و أنّهم يضعفون عن مجاراته.

فسجّل القرآن هزيمتهم في باب البلاغة و البيان، فتحققت معجزته، و إعترفت قريش و العرب، و البشرية جمعاء بإعجاز القرآن البياني.

8 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المعنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 285.

2- المبحث الثاني: الفرق بين القرآن و الشعر

لقد جاء الإسلام لتحديد المواقف المبدئية، و ليزيل المبهم مما شغل الإنسان في الحياة و ليخرجه من الظلال إلى اليقين و نخص بالقول العرب الذين أنزل القرآن بلسانهم.

فهو معجزة هذا النبيّ العربي الأميّ "محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و سلم)[1] الذي كان سببا لميلاد أمّة دفنتها رمال الصحراء، و جهلتها كتب التاريخ، فأحياها الله بعد موتها[2] بهذا القرآن العظيم.

فقد جاء القرآن مخاطبا للعقل و القلب، و مخالفا لما يعرفه العرب من أساليب النظم و النثر، و البراعة في قول الشعر الذي كان شغلهم الشاغل، حتى تجرّؤوا أن ينسبوه إلى القرآن الكريم، و من الملحدة من يزعم أن فيه شعرا[3]، و منهم من إدّع أنّ القرآن كلّه شعر.

لذلك عقد الباقلاني فصلا في نفي الشعر من القرآن، و ما حقيقة موفقه منه، فيقول: "قد علمنا أنّ الله تعالى نفي الشعر من القرآن، و من النبيّ (ص)"[4].

يقول الله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)[5]

و قال عزّ و جلّ: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ)[6]

فلو كان شعرا لبادروا إلى معارضته لما لهم من تمكن فيه و لأن الشعر مسخر لهم و مسهل عليهم[7].

1 : ينظر ، د/محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة و إعجاز القرآن الكريم، ط 1، 2007م، ص 13.

2 : ينظر، المرجع نفسه، ص 14

3 : ينظر، الباقلاني، تح: د/محمد عبد خفاجي، إعجاز القرآن، ص 102

4 : المرجع نفسه، ص 103.

5 : يس، آية 69

6 : الحاقة، آية 41

7 : ينظر الباقلاني، تح: د/أحمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 106

كون الباقلاني ناقدا بارعا جعله يجرؤ على تحمل مهمة صعبة و هي مقارنة النص القرآني بأجود النصوص الشعرية التي إتفق الجميع على بلاغتها، مبينا ما فيها من عيوب تعبيرية و يحلل في المقابل آيات من القرآن موضّحا ما فيها من بلاغة فمن بين النماذج الشعرية التي إختارها: (معلقة إمرئ القيس و قصيدة لامية البحتري المشهورة). "...فقد تناول معلقة إمرئ القيس بالنقد لإظهار ما فيها من عوار مع الإتفاق على أنّه من أجود الشعراء و أوّل طبقتهم الأولى، و هذا ليبرز تفوق النظم القرآني على أجود الشعر و أبرعه، و المعروف أن معظم براعة كلام العرب تكون في الشعر"[1].

فتناثرت في كتابه إنتقادات و آراء بلاغية فيقول:"و أنت لا تشك في جودة شعر إمرئ القيس و لا ترتاب في براعته، و لا تتوقف في فصاحته، و تعلم أنّه قد أبدع في طرق الشعر أمورا إتُّبِعَ فيها... و قد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلانا و فلانا و يضمون أشعارهم إلى شعره"[2].

من معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرأة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمأل[3]

وقوفا بها صاحبي عليَّ مطيّهم يقولون لا تملك أسى و تجمّل

و إنّ شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من مِعْوَلِ

كدأبك من أمّ الحويرث قلبها و جارتها أمّ الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا تأتي بريّا القرنفل [4]

1 : ينظر، د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 229، 230.

2 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 201.

3 : المرجع نفسه، ص 202.

4 : المرجع نفسه، ص 205.

هذه بعض أبيات معلقة امرئ القيس ملك الشعراء التي حللها و نقدها الباقلاني بحيث أنّه قام بشرحها بيتا، بيتا و كلمة كلمة مبينا ما فيها من عيوب، فرغم اعترافه بجودة شعره و براعة إبداعه إلاّ أنّه وصفه بالإبتذال و السوقية، و قليل الفائدة في معظم أبياته "خال من المحاسن و البديع، خلوّه من المعنى، و ليس له لفظ يروق و لا معنى يروع و لا لفظ شريف من طابع السوقة"[1] و في موضع آخر يقول "غاية في الفحش و نهاية في السخف"[2]، و رأي الباقلاني فيه: "أنّه يتصرف بين وحشي غريب..و بين كلام سليم متوسط، و بين عامي سوقي، و بين حكمة حسنة، و بين سخيف مستشنع"[3]

...فيسير في نقده لإمرئ القيس في قصيدته هذه، حتى يأتي بالشيء الكثير من النقد له و هذا كله ليبين أن مهما كان مبدعا، و مهما استحسنه النقاد و الشعراء في الجملة فإنّه لا يخلو من عيوب"[4] لكن القرآن الكريم ينأى عن أي عيب فيقول تعالى: (**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**)[5].

و بعد تفرغ الباقلاني من قصيدة إمرئ القيس، تطرق إلى بعض الأبيات من قصائد البحتري و أجود ما سمع منه: عروق الذهب.

أهلا بذالكم الخيال المقبـــــــــل فعل الذي نهواه أو لم يفعـــــــل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلـــــــل[6]

من غادة منعت و تمنع نيلهـــــــا فلـــــو أنها بذلت لنـــا لـــم تبذل

كالبدر غير مخيّل، و الغصن غيـــر مميّـــل و الدِّعـــــص غير مهيّل[7]

1 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، الإعجاز القرآن، ص 206

2 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، الإعجاز القرآن، ص 209

3 : ينظر، المرجع نفسه، ص 212

4 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 239

5 : النساء، الآية 82

6 : الباقلاني، تح: د/ السيد أحمد صقر ، الإعجاز القرآن، ص 335.

7 : المرجع نفسه، ص 339.

ما الحسن عندك ياسعاد بمحســـــن فيما أتاه و لا الجمال بمجمـــــــل[1]

عذل المشوق و إنّ من سما الهوى في حيث يجهله لجـــــــاج العذّل[2]

فبرغم نبوغه ، و اعتباره قدوة الشعراء، إلاّ أنّ الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" يسقط عنه هذه الصفات، فيدرجه ضمن المقلدين، فقصائده منقولة، و متداولة، خارجة من النظم المحمود... ألفاظه أوفر من معانيه، و كلماته أكثر من فوائده[3]، فلا يصح موازنته بالقرآن و إنما يوازن بشعر شاعر من طبقته، فنظم القرآن عال أن يسمو الفكر إليه.

شغل الباقلاني نفسه في نقد ما سبق ليبرئ القرآن الكريم من الشعر و لينزه الرسول (ص) من لقب الشاعر المنسوب إليه، لأنّه لا ينبغي له أن يكون شاعرا و لا يليق ذلك بمرتبه النبوة و لأن الشعراء يتبعهم الغاوون، أمّا الرسول (ص) فهو حامل أعظم إنجاز إلاهي شهدته البشرية حفظه الله من كل متمرد: فهو المعجزة الكبرى الباقية إلى يوم الّدين يقول تعالى في كتابه الكريم: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[4].

1 : المرجع نفسه، ص 340.

2 : المرجع نفسه، ص 341.

3 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، الإعجاز القرآن، ص 261.

4 : الحجر، آية 9

3- المبحث الثالث: الفرق بين بلاغة القرآن و بلاغة بني البشر

قال الله تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)[1]

فكلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت و بان فيه الإختلاف[2] في الفصل و الوصل في العلو و النزول، و التصرف و التبعيد و تميز بالنقص و التقصير، في حين أن نظم القرآن يتساوي في بلاغته في جميع ما يتصرف فيه من وجوه على حد واحد من حسن النظم، و بديع التأليف لا تفاوت فيه، و لا إنحطاط عن منزلته العليا و لا اسفال إلى الرتبة الدنيا فهو قريب إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، و يسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، و الواضح أنّ القاسم المشترك بين هذه الوجوه[3] هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر، و هذه من بين القضايا الأساسية التي إهتم بها الباقلاني ففي سبيل هذا تعمّد إلى مقارنة بعض النماذج الأدبية الرائعة التي تنص على قمّة البلاغة العربية، بالسور و الآيات القرآنية ليبين ما في الأولى من عيوب تعبيرية و ما في الثانية من حسن البيان و الفصاحة.

ففي سبيل تفضيل الأسلوب القرآني على الأسلوب البشري المحدود "و يؤكد روعة النظم القرآني و جمال تعبيره، و ليدلل على إعجازه البياني أورد ألونا عديدة من كلام الخطباء و الأدباء و الشهداء و قد صدر ذلك بخطب رسول الله (ص) و أبي بكر و علي و غيرهم كنماذج لتبيين الفرق بين كلام الله و كلام البشر"[4].

يقول الباقلاني:"قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول و محاوراتهم، و خطبهم و أحيلك فيما لم انسخ على التواريخ و الكتب المصنعة في هذا الشأن، فتأمل ذلك، و سائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف و أهل البيان و اللسن و الفصاحة و الفطن و الألفاظ المنثورة و الخطبات الدائرة بينهم و الأمثال المنقولة عنهم...ثم أنظر بسكون طائر و خفض جناح، و تفريغ

---

1 : النساء، آية 82.

2 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المعنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 87

3 : ينظر وجوه الإعجاز بالنظم السابقة الذكر في الفصل I، المبحث الثالث.

4 : د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 229.

لبّ و جمع عقل، في ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام النّاس و كلام ربّ العالمين، تعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الأدميين"[1]

فأسلوب القرآن لا يشبه أسلوب كلام الرسول (ص)، كلام رسول الله الوارد في أحاديثه الشريفة لا يقدر أحد من الصحابة و من جاء بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه (ص) في فصاحته و بلاغته[2]، إلاّ أنّ الباقلاني بعد عرضه لخطب الرسول (ص) و رسائله يقول: إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا في علم العربية متبينا، أنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي (ص) فتعرف الفصل بين النظمين و الفرق بين الكلامين، فتناول مذاهب العرب في تفاضل البلغاء ثم يعرض بعض الخطب للنبي (ص)[3] يقول الرسول (ص) في أحد خطبه:

"أيّها النّاس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، و إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض عليه فيه... فاليأخذ العبد لنفسه من نفسه و من دنياه لآخرته، و من الشبيبة قبل الكبر من الحياة قبل الموت و الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب و لا بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار"[4].

إنّ أسلوب الرسول (ص) مثل أعلى في الفصاحة و البلاغة فقد بدأ بالتنبيه على ما سيقول و يتجلى ذلك في النداء (أيها الناس) و هو تعميم الخطاب لجميع البشر في كل زمان و مكان.

واختار لفظ المعالم و هي التي يستدل بها على الطريق، و إنتهوا إلى معالمكم أي قفوا عندها و لا تتعدوها. و عبّر عن ماضي العمر و مستقبله بمخافتين مبرزا سر جمال التشويق و استمر بالإيضاح بذكر ما يجب على الإنسان أن يأخذه من دنياه لآخرته، و من شبابه لشيخوخته، و زاد الأمر توكيدا القسم في قوله (ص) و الذي نفس محمد بيده، و التضاد في خطبته واضح فطباق بين (دنياه، آخرته). (الشبيبة، الكبر) (الحياة، الموت) (الجنة و النار).

1 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 197

2 : ينظر، د/محمد حسن سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، ط 1، 2002م، ص 11.

3 : ينظر، د/محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة و إعجاز القرآن، ط 1، 2007، ص 92.

4 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 179.

فتتميز هذه الخطبة كما غيرها من خطب الرسول (ص) بالسهولة و الوضوح و قصر الفقرات، التنويع من الأساليب الملائمة لمستوى السامعين معتمدا على الإقناع الهادئ المرتب.

بعد أن ينتهي الباقلاني من عرض خطب النبي (عليه الصلاة و السلام) يقول: "و لا أطول عليك و اقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك في الصنعة حظ... أو في العربية بقِسط... فما أحسب أنّه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، و بين ما نسخناه لك من كلام الرسول (ص) في خطبه و رسائله، و ما عساك تسمعه من كلامه، يتساقط إليك من ألفاظه"[1] إذ يرى أن الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن و بلاغة الرسول (ص)، بعدها مباشرة يذكر خطب الخلفاء الراشدين و بعض كتبهم و عهودهم، و يذكر شيئا من ذلك لغيرهم من الصحابة [2] فيبدأ بخطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مطلعها: "امّا بعد فإني وُلّيت أمركم، و لست بخيّركم... و ينتهي إنما أنا متَّبع و لست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، و إن زغت فقوموني"[3].

كذلك عهد من عهود عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى عبد الله بن قس [4] .

أما عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فمن كلامه:

إنّ كل شيء آفة، و إن لكل نعمة عاهة، في هذا الدين عيّابون ظنّانون، يظهرون لكم ما تحبون، و يسرون ما تكرهون[5].

و من كلام علي (كرم الله وجهه) و هو يبكي لفقدان أبي بكر و يقول: انقطعت خلافة النبوة[6]، ثم يسترسل في مدحه و ثنائه.

و في مطلع خطبةٍ له:

1 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، اعجاز القرآن، ص 183

2 : ينظر، الباقلاني، د/محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة و اعجاز القرآن، ص 92

3 : ينظر، الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، أعجاز القرآن، ص 185

4 : ينظر المرجع نفسه، ص 187

5 : المرجع نفسه، ص 189.

6 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، اعجاز القرآن، ص 189.

أمّا بعد، فإن الدنيا قد أدبرت و أذنت بوداع، و إن الآخرة قد أقبلت و أشرفت بإطلاع...[1]

كما قام بذكر خطبة قيس بن ساعدة، و خطبة لأبي طالب... و غيرها و ذلك ليعرف القارئ الفرق بين الأساليب النثرية في كلام الآدميين، و كلام ربّ العالمين[2].

و إن كانت بلاغة الرسول (ص) و بلاغة الصحابة رضوان الله عليهم تضعف أمام الكلام اللابشري المعجز فما بالك بغيرهم إلاّ أنّ رغم وضوح الإعجاز "هناك من توهم معارضته و ادعى أن الوحي أنزل عليه بمثل ما أنزل على محمد (ص)، و هو بذلك يخيل إلى من اتبعه أنّه ضاهي القرآن بما إدعى من وحي[3] و من بين هؤلاء مسيلمة بن حبيب، نعت بمسيلمة الكذاب لإدعائه النبوة، فأما كلامه و ما زعم أنّه قرآن و وحي أنزل عليه من السماء فيقول الباقلاني:"...فهو أحسن من أن نشتغل به، و أسخف من أن نفكر فيه... و إنما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ، و ليتبصر الناضر، فإنه على سخافته قد أضل و على ركاكته قد أزل[4] و أحل لهم الخمر و الزنا و وضع عنهم الصلاة[5].

من وحيه المزعوم: ((و الليل الأطخم، و الذئب الأدلم و الجذع الأزلم ما انتكهت أسيد من محرم)) ((و الليل الدامس و الذئب الهامس ما قطعت اسيد من رطب و لا يابس))[6] و يقول: ((ضفدع بنت ضفدعتين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء و أسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، و لا الماء تكدرين لنا نصف الأرض و لقريش نصفها، و لكن قريشا قوم يعتدون))[7].

1 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2 : ينظر، د/محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة و إعجاز القرآن، ص 92، 93

3 : د/محمد عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 54.

4 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 199

5 : د/محمد عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 55.

6 : ينظر الباقلاني، تح: د/محمد عبد المنغم خفاجي، اعجاز القرآن، ص 199

7 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، اعجاز القرآن، ص 200

" و بنظرة عبارة في هذا الهراء نحكم عليه بالسفل من القول و بالرّداءة في الأسلوب... و لا ينبغي أن نعده اسلوبا بل هراءًا و تخريفًا"[1]

و لخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر (ض) حين طرق سمعه، اشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال[2].

...و من كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام[3] المجرد من المقاييس البلاغية و النقدية، أما كلام الله فيتساوي بلاغة و أعظم و اشرف بيانا، لا يماثله اي كلام فيعجز عنه الإنس و الجان.

و نحن نقول أنّه حتى و إن لم تكن من أهل الصنعة و حضك من العلم بقليل، لا يهون عليك أن تميز الكلام العادي عن الكلام الراقي و أن تستنتج أنه كلام غير مخلوق، و إنما وحي من عند رب العالمين و برهان ساطع و دليل قوي على صدق متحملة و رسالته و عظمة القرآن و شموخه.

1 : د/محمد عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، ص 56.

2 : المرجع نفسه، ص 57.

3 : الباقلاني، تح: د/محمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، ص 200

إنّ كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، كتاب بلاغي من حيث أخذه لجانب الإعجاز البياني و البحث في الأدلّة و الرّد على المخلفين، و هو كتاب نقدي من حيث المقارنة و الموازنة التي أجراها بين ألفاظ القرآن الكريم، و ألفاظ شعر الشعراء و خطب الخطباء، بالمقارنة بين الأسلوب القرآني و الكلام البشري، و يذهب إلى أنّ وجه الإعجاز ما في القرآن من النظم البديع و التأليف العجيب مما هو خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، فهو يجعل سرّ الإعجاز فنا في البلاغة و البيان القرآني.

ما جعل كتابه من أهم البحوث الرّائدة حول الإعجاز القرآني إذ أسهم في تحديد فكرة الإعجاز و تطوير مفهومها، و مناهج بحثها بصورة أثرت في كل من جاؤوا بعده من علماء البلاغة و الدراسات القرآنية.

و أسهم في نشأة البحث البلاغي و إثرائه، بحيث شكل مناخا مناسبا لنموه و تطوره فارتبط الدرس البلاغي بالقرآن و خدمته و إثبات إعجازه منذ نزوله.

فالبلاغة هي الوسيلة التي عملت على إبراز ما في القرآن من وجوه الجمال و خصائص أسلوبية كانت و ما تزال أساس التحدي و مناط الإعجاز.

إن القرآن معجز ببلاغته، و روعته و جدته، و في شرف معاينة و مقاصده و مراميه و أغراضه، و في جلال دعوته و صدق شريعته و سمو حكمته، و في عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها و حاضرها و مستقبلها و في سموّ و جلال أثره و خلوده على مرّ الأيام، إذ ينفرد بأسلوب مباين لأساليب كلام البشر لأنّه يجمع وجوه الحسن و أسبابه و طرقه و أبوابه من تعديل النظم، و سلامته و بهجته، و حسن موقعه في السمع و سهولته على اللسان و وقوعه في النفس موقع القبول فالإعجاز يرجع إلى عدد كبير من الخصائص التي يصعب حصرها و يشق عدّها.

يعد القرآن الكريم العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف إتجاهاتها، فروعة بيانه أقر بسلطانه، و أعجز مناظريه أن يأتوا بمثله بحيث أن الإعجاز البلاغي للقرآن هو الممهد الأول لنشأة البلاغة و إرساء قواعدها المتينة فهو عماد اللغة العربية، ارتقى بها لتكون أسمى اللغات، فأثره ظاهر و جلي لتميزه بالفصاحة و البيان.

فالقرآن سحر الذهن و أخرس اللسان، فلقد أعجز الإنس و الجان أن يأتوا و لو بآية مثله، فكانت مجاراته محال...فرغم طوله إلاّ أنّه منظم بإحكام، فلا شك و لا ريب أنّه ليس من صنع إنسان، و إنّما منزّل من عند الخالق الرحمان فلو كان البحر مدادا لنفذ البحر و ما نفذت كلمات الله خالق الأكوان.

قائمـــــــة المصـــــادر و المراجـــــع

القرآن الكريم.

1. الباقلاني، تح د/أحمد عبد المغنم خفاجي، إعجاز القرآن، دار الجيل، بيروت،الطبعة1، 1991م.
2. الباقلاني، تح، د/السيد أحمد صقر، إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر
3. الباقلاني، تح: د/محمد عصام القضاة، الانتصار للقرآن، دار الفتح للنشر و التوزيع،الطبعة1، 2001 م.
4. الباقلاني، الإنصاف فيما يجب إعتقاده و لا يجوز الجهل به، تحقيق، د/محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الزهرية للتراث، الطبعة 2، 2000م..
5. رسالة مجستير، توظيف البحث البلاغي في إعجاز القرآن بين الرماني و الباقلاني إعداد سحر عطا الله محمد الحسبان، إشراف د/ علي الأبواب، 2006.
6. د/المحمدي عبد العزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني للقرآن الطبعة1، 1984م.
7. الرماني، تح: زغلول سلام / و محمد غلف الله، النكت في إعجاز القرآن، دار المعارف.
8. د/محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة و إعجاز القرآن الكريم الطبعة1، 2007م.
9. د/محمد حسن سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية الطبعة1، 2002م.